الزباء أو زنوبيا ملكة تدمر*

الزباء أو زنوبيا هما اسمان لبتزباي ملكة تدمر ، وليّنت الملك في منتصف المئة الثالثة بعد المسيح ، وقد أطلق عليها العرب اسم الزباء وعرفت باسم زنوبيا عند الرومان ، وهي من أشهر شهيرات العالم القديم ، ولا يعرف من النساء من بلغ مبلغها في العزيمة والاقدام ، وشدة البأس وسمو الاخلاق ، وحسن السياسة وعزة النفس ، ولا يفتري المؤرخ المنصف على التاريخ اذا وضعها في طليعة أعاظم الابطال ومشاهير الرجال ، ارتقت بفضل مواهبها الى ذروة المجد وأضافت الى التاريخ صفحة شرقية شريفة خلدتها أعمالها النبيلة ونضالها المجيد ، ومفاداتها الجسيمة في سبيل الذود عن حياض ديارها وحرية بلادها .

إن كان الحظ قد خانها في ادراك غايتها وقهر أعدائها فانها فازت بالصيت الحميد والذكر الخالد ، فكانت في سلطانها خير من ولي ، وفي محنتها خير من بلي ، فلم يخدعها اقبال ولا أذلها ادبار . لقد سلبها الخصم سعادة الملك ولكنه عجز عن أن ينال من عزة نفسها أو يجد اليها سبيلاً ، أنفت من كل محاولة تحفظ لها عرشها ، وأعرضت بإباء عن كل مساومة ذليلة ، فلم ينفع معها وعد ولا وعيد ، وأبت الا أن تقي لشعبها بما نذرت له نفسها ، حياة عزيزة واما ميتة شريفة وقد اختارت المنية على الدنية .

ولابد لنا قبل أن نبحث حياة الزباء وتاريخها من أن نستعرض أخبار تدمر القديمة وأدوارها السياسية وحالتها الاجتماعية ، لندرك حقيقة جهاد بطلتنا ، ونحكم على مراميها النبيلة .

---

(١) محاضرة ألقاها الاستاذ جعفر الخليلي في ردهة محاضرات المجمع العلمي العربي في ١ ايار سنة ١٩٤٢ .

أجمت الكلمة على مكانة تدمر الأثرية واشتهر أمرهـــا في أقطار العالم ، ودعيت بحق عروس الصحراء بلا مبالغة ولا إغراق ، وقد افتتن دي فوكويه (de Vogué) بآثارها بقوله : « سيبقى اسم تدمر أبد الدهر فتنة الألباب » . وأصبح اسم تدمر اسماً عالمياً كرومية وآثينة والقسطنطينية وأنطاكية وبيت المقدس والاسكندرية مع أنها دون هـذه العواصم منزلة وأحدثها عهداً . خلد التاريخ ذكراها مع أن مثيلاتها من مدن الديار الشامية كبعلبك وجرش وأفاميا وبصرى ووادي موسى (البتراء) وغيرها من أمهات المدن قد اهمل أمرها بعد أن أفل نجمها وخمل ذكرها وأصبحت نسياً منسياً على حين كان بين هذه المدن مايضاهيها ثروة وفخامة وجمال بناء ، وتاريخها حافل بالذكريات ، ولذلك أصبح لزاماً علينا أن نبحث في الخصائص التاريخية والاقليمية التي تحلت بها تدمر حتى احتفظت دون سواها بهذه الشهرة الواسعة .

تدمر مدينة قديمة أطلق عليها الرومان اسم بلميرة (Palmyra) واحتفظ العرب باسمها الآرامي القديم أي تدمر ، وتقع الى شرقي حمص وسط واحة ، بينها وبين دمشق نحو من (٢٣٠) كيلومتراً ، وماؤها غزير ، وتحيط بها بساتين نخيل وزيتون ورمان ، وتنتج أرضها بعض الحبوب وبعض البقول وفي جوارها مملحة واسعة كان ملحها من أهم موارد تدمر ، وقد أحسنت استثمار حراج شجر البطم التي كانت تكسو معظم جبالها وتستخرج منه زيت البطم وقد عبثت الايدي بهذه الحراج ولم يبق منها اليوم سوى النذر اليسير .

لم يزل حقيقة تاريخ انشاء تدمر مجهولاً لدينا وكذلك تاريخها قبل العهد الروماني ، الا أن الكلمة مجمعة على قدم عهدها . فقد ورد ذكرها باسمها الآرامي (تدمر) في بعض النصوص الآشورية التي يرجع عهدها الى الألف الثانية قبل المسيح كما ورد ذكرها في سفر أخبار الايام الثاني من الكتاب المقدس الذي كتب في المئة الثانية قبل الميلاد ، ونحل هذا السفر

بناء تدمر سليمان النبي وهذا يدل على أنها وقتئذ كانت زاهرة عامرة والا لما نسب بناؤها الى هذا الملك العظيم منشىء هيكل بيت المقدس الشهير والذي يخلونه بناء كل صرح عجيب ومصنع جليل متى جهلوا حقيقة أمره .

وأما تاريخها في العهد الروماني فقد اتصل بنا خبره من مصادر قديمة وحديثة عديدة ، ومما اكتشف من آثارها ، واتفقت هذه الوثائق على ماوصلت اليه تدمر من ثراء وحضارة وعمران . ومن عرف عظمة أطلال تدمر وصروحها الشامخة أيقن بمجدها الغابر ونسبها العريق .

حاول انطونيوس القائد الروماني المعروف وعشيق كليوبترا ملكة مصر أن يغزو تدمر المستقلة سنة (٤١) قبل الميلاد طمعاً بثروتها المشهورة يومئذ ولكنه باء بالفشل ومني جيشه بهزيمة شنعاء ، وقد أطال هذا الفوز أجل استقلال تدمر عشرات السنين قبل أن يحل بها مصيرها الأليم .

كان السواد الاعظم من أهل تدمر في الأعصر القديمة من الآراميين لهم لغتهم وكتابتهم ، وقد انضم اليهم بعد أحقاب جماعات من العناصر السامية الاخرى المجاورة لهم ومن أبرزهم العرب والانباط وكان لهم كيان وشأن واحتفظوا باسمائهم العربية : كوهبلات وأذينة وزبيدا وتيما وعزيز ومعين ومقيمو وكهيـل وصفة التصغير فعيل وفعيلة هي من خصائص اللغة العربية دون سواها من اللغات السامية ، وجلبوا معهم آلهتهم : كلات والعزى ورضو وشيعة القوم .

لا نعرف نوع الحكم الذي كان في تدمر في ذاك العهد ونجهل النظم الاجتماعية الخاضعة لها تلك العناصر ، ويرجح أن الحكم السائد بينهم حتى المئة الأولى بعد المسيح كان يختلف عما صار اليه فيما بعد ، لم نجد أثراً لسلطة مدنية عليا ولا شريعة شاملة بل كان النظام السائد أقرب الى تقاليد البادية منه الى القوانين المدنية . فكان أهلها شيعاً وأحزاباً يخضع كل منهم لرئيس ، والنفور مستحكم بينهم ، يتنازعون السيادة ويتنازعون لأتفه استفزاز ، ولذلك نصب أهالي تدمر في سنة ٢١ م . تمثالاً لأحدهم

تكريماً له لانه أصلح ذات البين بين فريقين متنازعين من أهالي تدمر ، كما أننا عثرنا بين الكتابات التدمرية على عشرات من أسماء القبائل والعشائر العربية التي كانت تنزل تدمر يستدل منها على أصول هذا القوم وقرب عهدهم بالحياة البدوية التي توارثوا عنها تقاليدها وتأصلت فيهم عاداتهم القديمة .

وكان نطاق تدمر الاقليمي ضيقاً للغاية ولا يخضع لسلطانها سوى بقعة صغيرة تشمل خلا حاضرة تدمر بعض البادية الشرقية وقسماً من الجبال الغربية ويختلف عدد سكان هذه المنطقة بين المائتي ألف والثلاثمائة ألف نسمة .

وبلد هذا شأنه لايرجى له مستقبل سياسي عظيم ولامطمع له بمركز دولي خطير ، لاسيما اذا كان بجوار دول عظمى قوية الشكيمة مرهوبة الجانب كما هو شأن تدمر منذ أقدم عصورها مع من جاورها من الأمم وخاصة الرومان والفرس .

أدرك التدمريون حقيقة حالهم وأدركوا ضعف كيانهم وقلة مواردهم ورأوا من المتعذر أن يكتب لهم البقاء إلا بمصانعة جيرانهم الاقوياء وخطب ودهم وعطفهم حتى يسمح لهم بطلب الرزق في بلادهم ، فسلكوا هذا المسلك وجنوا من ذلك فوائد اقتصادية عظيمة ، فكان منهم جاليات في أهم المراكز التي تسلكها القوافل التجارية بين خليج فارس والبحر المتوسط وبهذه الطريقة جمع بعضهم ثروة طائلة عادوا بها الى تدمر وحملوا معهم حب البذخ والترف الذي ألفوه في البلاد التي أثروا فيها وعمدوا الى التنافس في تشييد الابنية العظيمة ، وكلما زادوا ثروة تأنقوا بالبناء حتى أصبحت تدمر في مصاف أمهات المدن تقدماً وعمران .

ان عرفت الديار الشامية بانها ملتقى الامم فتعتبر تدمر منفذهم ومفترق طرقهم ، يسيرون منها الى جميع العالم المتمدن ، فهي أفضل مركز تجاري للديار الشامية من ناحية الصحراء الشرقية ، تقع بين منتصف الطريق بين بحر الروم المتوسط ونهر الفرات المتصل بخليج فارس ومنه طريق الهند ،

وهي محط رحال القوافل التجارية القادمة من الشرق والغرب ، لصدر منها محصولات الشام ومصنوعاته ومنتوجات رومية وغيرها من بلاد الغرب ، ويحمل اليها كل ماتستورده الشام والقارة الاوربية ومصر من خيرات بلاد فارس والهند والصين ، فهي والحالة هذه همزة الوصل بين الشرق والغرب . أيدت الحفريات الأثرية في تدمر هذه الحقيقة فقد عثر أثناؤها على مصنوعات موطنها أقصى بلاد الغرب ومنسوجات حملت اليها من أقصى بلاد الشرق .

أدرك التدمريون في مختلف الادوار السياسية الميزة التي خصت بها الطبيعة تدمر فعملوا جهدهم لاقتطاف أفضل ثماره ، فامنوا السبل وسهلوا المواصلات للقوافل والعربات وبذلك ذللوا البوادي والقفار كما ذلل من قبلهم الفينيقيون لجج البحار . وقد وضعت تدمر حينما تدرجت في النظم الادارية والاقتصادية نظاماً جمركياً شاملاً لجميع السلع التجارية ، ضمنت به حقوق المصدر والمستورد على السواء وأمنت بذلك لخزانتها مورداً ثابتاً ، وهكذا اتجهت اليها الانظار وتحولت نحوها القوافل ، فقضت بذلك على منافسيها من المدن وخاصة البتراء والحيرة وكان لهما وقتئذ شأن عظيم لقرب الاولى من القطر المصري والبحر الاحمر ، وقرب الثانيـــة من خليج فارس وجزيرة العرب .

وغدت تدمر بثروتها مضرب الأمثال وتطاولت اليها الأعناق وطمع في ثروتها المجاورون والجيران وتنازعتها رومية وفارس ، يخطب كل منها ودها ويرغب أن يفوز وحده بصداقتها . وقضى هذا الصراع على ازدهارها وعكر صفو هنائها وعجل في دمارها وهي في ريعان شبابها وعنفوان مجدها وحل بها القضاء من حيث لاتحتسب .

وكان لتدمر أيضاً شأن عسكري كبير يضمن للسيطر عليها فوائد لايستهان بها . فهي بحكم موقعها الجغرافي الحامية الامامية لهذه الديار من ناحية حدودها الشرقية وحصنها المنيع الذي تدفع به غارات المعتدين وتتحطم على أسواره قوة المهاجمين . وهي من أهم مراكز حشد الجيوش وتعبئتها

لوفرة مائها وكثرة زادها ، وطريقها أفضل الطرق لكل من يريد غزو بلاد الشام من حدودها الشرقية .

اشتهر التدمريون بشجاعتهم وشدة بأسهم في الحروب وكانوا من أمهر رماة عصرهم وأفرسهم وأسرعهم كراً وفراً ، وعرفوا بجلدهم العظيم على تحمل مشاق السفر في البوادي والقفار ومعرفتهم مسالكها وطرقها وآبارها فلا عجب أن تنازعت رومية وفارس سيادتها وسعى كل منها الاستيلاء عليها لتكفل له التفوق في النضال .

بذلت تدمر في المئة الاولى للميلاد جهدها لتحقيق وحدتها القومية والسياسية والمحافظة على استقلالها وابعاد خطر جيرانها عنها ، فصانعتهم بحنكة ودهاء وحافظت على حيادها التام وعقدت علائق الود مع فارس ورومية على ما كانا عليه من العداء الشديد والمنافسة على السيادة العالمية .

وأدركت تدمر وهي الشديدة الحرص على حريتها وسلامتها ماهي صائرة اليه وانه أصبح من المتعذر عليها أن تنعم طويلاً بهذا الاستقلال مادامت فارس ورومية لها بالمرصاد وانها ستصبح عاجلاً أو آجلاً طوعاً أو قسراً فريسة لاحداهن وانها عاجزة عن دفع خطر عدو عظيم يفوقها عدداً وعدة وان الحكمة تقضي عليها أن تتدارك أمرها وتختار اهون الشرين وتنحاز بارادتها للجانب الذي توسمت الخير فيه ، فاختارت لذلك رومية وريثة الدولة اليونانية والمسيطرة على بلاد حوض البحر المتوسط ، فتقبلت تدمر انفسها مصير اخواتها من بلاد الديار الشامية التي تربطها بها صلات قومية وفوائد مادية واقتصادية كبيرة .

وهكذا نرى تدمر في النصف الاخير من المئة الاولى بعد الميلاد قد دخلت طوعاً في نطاق نفوذ رومية ، وسلكت هذه الاخيرة معها سياسة رشيدة وعاملتها معاملة بعيدة عن كل تعصب أو استفزاز وحبتها دون سواها برعاية خاصة أمنت به على مصيرها الجديد ، فتركت لها حرية العمل في ادارة شؤونها الداخلية واحترمت شعورها القومي وتقاليدها ، وشاركتها

في تكريم آلهتها وتشييد معابدها واحتفظت تدمر بلغتها الآرمية على شيوع اليونانية في الربوع الشامية المجاورة . ولم تتأثر علاقاتها التجارية مع الأقطار المجاورة والبلاد البعيدة بل ساعدتها رومية على توسيع نطاقها الاقتصادي الى حد لم تعهده من قبل وتمتعت تدمر في ظل حمايتها ورعايتها بأزهى عصورها وبلغت الغاية في جميع مرافق الحياة . وهذا ماحمل تدمر أن تخلص الود لرومية ، وأقبل أفرادها يتطوعون في الجيش الروماني ونظمت منهم كتائب وزعت على جميع المستعمرات الرومانية ، وقد عثر على آثارهم في فرنسا وايطاليا وافريقية الشمالية وضفاف نهر الطونة حتى بلاد المجر . ولم تهمل رومية نوعاً من ضروب الاغواء إلا سلكته مع تدمر . وزارها القيصر أدريانوس في عام ١٢٩ م تكريماً لها ومنحها اسمه وأصبحت تعرف في الوثائق الرسمية باسم ادريانة تدمر . وهكذا اكتسبت تدمر ثقة رومية وأكدت صداقتها باخلاصها لها والاشتراك معها في حروبها والدفاع عن ممتلكاتها ، حتى توصلت إلى أرفع مراتب المستعمرات المستقلة ادارياً . ويمكننا القول بان العهد الروماني كان بجملته من أحسن الأدوار التي مرت على تدمر ، فقد نمت مواردها وزادت ثروتها واتسع عمرانها حتى فاق في بعض النواحي عظمة رومية عاصمة العالم القديم . وعملت على تنظيم شؤون تدمر الادارية والمالية على نحو ماهو عليه الحال في رومية . وأنشأت لها حكومة دمقراطية تستمد سلطانها من هيأتين شرعيتين وهي مجلس الشيوخ والمجلس البلدي ، ولذلك لم تشعر تدمر بوطأة سيادة الرومان اذ كان ضعيف الأثر لاسيما في عهد الملوك الشاميين الذين تولوا عرش رومية ، ولهذا لم تر تدمر غضاضة ببسط هذه السيادة عليها وقد قبلت رومية سيطرة الملوك الشاميين عليها وهم الياجبل وسيبتموس ساويرس واسكندر ساويرس وفيليبوس العربي . ومن البديهي أن يكون لهذا التسامح أثره الطيب في نفوس الشاميين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم شركاء رومية بالحكم لا من أتباعها ، ويعتبرون الامبراطورية الرومانية وحدة منسجمة بين الشرق والغرب ولولا هذه العقيدة ما أخلص

التدمريون هذا الاخلاص وأعرضوا عن الفرص العديدة التي سنحت لهم لاستعادة حريتهم لاسيما حين هزم الفرس الروم ودحروهم الى شواطىء البحر المتوسط ، ولو قلبت لهم تدمر وقتئذ ظهر المجن وآزرت الفرس لتمكنوا من طرد الروم من تدمر والشام وبقية بلاد الشرق ، ولكن على عكس ما كان ينتظر منها فقد ساوءت لنجدة الروم التثأر لهم من الفرس ونحو العار الذي لحق بجيشهم كأن هزيمة رومية هي هزيمتها تشاركها الأتراح وتهلل لها في الأفراح .

ومازالت تدمر تدرج في المئة الأولى والثانية ميلادية في معالم الرقي والعمران وتسير حالها من حسن الى أحسن دون أن يمكر صفوها حادث الى أن دهب الوهن في كيان الامبرطورية الرومانية بعد موت القيصر سبتيموس سيروس ، وخرج عليها بعض عمالها وقوادها وأضرموا نار الفتن في مختلف ممتلكاتها في آسية وأوربا وأفريقية حتى بلغ عددها نحواً من عشرين ثورة في خلال فترة قصيرة ، وعجزت عن اخمادها وخسرت بعض ولاياتها ومع ذلك بقيت تدمر على ولائها لرومية تتمتع بالسعادة وتنعم بالسلام المخيم على ربوعها وتعمل على كسب المال وانفاقه بسعة في سبيل البناء الى أن ظهرت في سنة ٢٣٠ م على مسرح السياسة الأسرة العربية أسرة آل أذينة التي آل اليها حكم تدمر وأتمنت على مقدراتها ، فنفخت بابناء تدمر روحاً جديدة ودفعت بهم الى المعترك السياسي لتخرجهم من عزلتهم الطويلة فقادتهم هذه الأسرة من نصر الى آخر وانتصرت جنود تدمر بقيادة ملكها أذينة زوج الزباء حيث فشلت حملة الروم بقيادة قيصرها فالريانوس (Valerien) الذي أسره سابور ملك الفرس واستسلم اليه جيشه ، وجاء التدمريون فهزموا الفرس واكتسحوا بلادهم ودخلوا عاصمتهم فاصابوا فيها غنائم عظيمة واستردوا عدداً كبيراً من أسرى الروم . وكان لهذا النصر أثره الحميد في نفس الامبراطور غاليانوس ابن القيصر الاسير ووجد في أذينته خير نصير وأصدق حليف فاشركه بالحكم ولقبه أمبراطوراً وعهد اليه حكم جميع الولايات

الشرقية ماعدا مصر والأنضول . وأمره على الجيوش الرومانية في بلاد الشام وجزيرة العرب ، فعمل أذينة على اخماد الفتن الناشئة في تلك البلاد وبسط سلطانه وأعاد للحكم هيبته وللجيش سطوته حتى أصبح مرهوب الجانب يخشى الجوار بأسه وتخاف الرعية شدة بطشه . ولكن المنية عاجلت هذا الرجل العظيم في سنة ٢٦٦ م . قبل أن يدرك غايته . اغتالته في حمص يد أثيمة مع ابنه وولي عهده حيران وهو ابنه من زوجة غير الزباء ودبر هذه المكيدة ابن أخيه معن ليفوز بملك عمه ، وقضى أذينة نحبه وهو في عنفوان مجده وترك ملكه قبل أن يتم بناؤه وتتوطد أركانه ، محفوفاً بالاخطار ، لانه قام في حالة استثنائية وحققته مغامرات جريئة لاتؤمن عواقبها ، وتوقع بعضهم سرعة انهيار هذا الصرح وانه زائل بزوال مؤسسه لاسيما وقد خلفه في الحكم طفل قاصر وزوجة فتية لم يسبق لها ممارسة حكم ولا تعودت سياسة شعب وهما وهبلات وامه الزباء .

وفي هذه الظروف الحرجة ظهرت على المسرح بطلتنا الزباء أرملة أذينة . فعهدت بالحكم لابنها القاصر وهبلات وتولت وصايته . وقد نسب اليها بعضهم المؤامرة التي ذهب فيها زوجها وولده لتقضي عليها وينتقل الامر لها ولابنها . وأثبتت الوقائع فساد هذا الزعم وأن القاتل هو أحد أقارب القتيل ، أقدم على جريمته بدافع منفعة شخصية ومصلحة ذاتية ، وهذا يبريء الزباء من وصمة هذه الجريمة الشنعاء . ويستنتج من تتبع الحوادث أن المكيدة دبرت من قبل الأوساط الرومانية المتطرفة ودفعت القاتل لارتكاب جريمته ليتخلصوا من أذينة وطموحه خشية أن يؤول عرش رومية اليه كما سبق في عهد القياصرة الشاميين . ويؤيد ذلك موقف حكومة رومية من الزباء وابنها ، فقد منع القيصر غاليانوس عن الملك الصغير الالقاب والامتيازات التي منحت لوالده وسعى أن يحط من شأنه ويضعف نفوذه ، وحاول أن يقتطع منه الولايات التي أخضعها أذينة لسلطانه ، وهنا ظهرت مواهب الزباء وبدأ من يومه النضال بين تدمر ورومية ،

فأبت الزباء أن تفرط بأقل حق من حقوق ولدها وأن تتنازل عن أي جزء من ميراثه ، فكانت مثال الوصي الأمين والمدبر الحكيم . فنادت بابنها ملكاً وتولت هي وصاية عرشه وتدبير ملكه .

ليس لدينا حتى الآن وثائق يركن اليها لمعرفة نسب الزباء وتاريخ ولادتها ، وعرفنا أنها كانت حين مقتل زوجها في مقتبل العمر لم تتجاوز سنها العقد الثالث ، وعرفت حقيقة اسمها واسم أبيها من كتابة تدمرية ورد فيها اسمها « بتزبي بنت انطيوخس ووالدة القيصر ملك الملوك وهبلاّت » .

وقد ذهب مؤرخو العرب في سيرتها ونسبها مذاهب عديدة خلاصتها : « أنه كان في أيام جذيمة الأبرش بن مالك اللخمي رجل يقال له عمرو ابن الظرب بن حيان ابن أذينة بن السميدع بن عويز من العماليق ، وكان ملكا على الجزيرة وأعمال الفرات ومشارف الشام ، جرى بينه وبين جذيمة حروب فانتصر جذيمة عليه وقتله وشتت شمل قومه وأجلاهم من بلادهم . ولكنهم عادوا وجمعوا أشتاتهم وحشدوا جموعهم وولوا عليهم الزباء ابنة عمرو فنذرت نفسها للأخذ بثأر أبيها فنصبت لجذيمة المكائد ودعته اليها وقتلته ، غير أن عمرو بن عدي خليفة جذيمة قد احتال عليها بواسطة قصير بن سعد وحاصرها في قصرها على الفرات ، ولما يئست من النجاة وأيقنت بالهلاك عمدت الى سم كان في خاتمها فابتلعته قائلة : « بيدي لا بيد ابن عدي » ، وماتت لساعتها .

وزعم غيرهم أن أصلها روماني تعرف العربية . وذكر الميداني في مجمع الأمثال أنها ولدت في باجرمي . وقال ابن قتيبة انها ابنة ملك العراق تزوجت الملك الذي قتله جذيمة . واختلفوا في اسمها فمنهم من قال أنها سميت فارعة ومنهم من ادعى أن اسمها نائلة وذهب بعضهم الى أنها تدعى ليلى ، وقال آخرون أنه كان اسمها ميسون . وقد أجمعوا على أنها كانت أجمل نساء عصرها ولم يعرف بينهن من هي أقوى حزماً منها ولا أرجح عقلاً .

إن هذه الروايات غريبة وهي أقرب للخيال منها للحقائق التاريخية غير

أنه لانشك بان المقصودة في كل ما أوردوه هي نفس الزباء ملكة تدمر ، لأن هذه الحوادث معاصرة لها ، فقتل جذيمة الأبرش نحو سنة ٢٦٨ م أي بعد سنة من تولي الزباء عرش تدمر . ولا ينفي اختلاف اسم الأب بين عمرو وأنطيوخس الى ماذهبنا اليه فلدينا شواهد عديدة ممن اتخذ له من أعيان تدمر اسمين أحدهما سامي تدمري والآخر أجنبي روماني ، ونعتقد أن الزباء قد احتفظت في الكتابة التدمرية الرسمية باسم أبيها الأجنبي وهو أنطيوخس وحفظ رواة العرب الاسم السامي وهو عمرو .

وليس من سبيل والحالة هذه أن نعتمد في أخبار الزباء على المصادر العربية وحدها بل يجب الرجوع الى ماقاله مؤرخو الرومان واللاطين ، نخص منهم بالذكر : وبنيكوس (Vopiscus) وتريبوليوس بوليون (Trebellius Pollion) وزوزيم (Zozime) وزونوراس (Zonoras) والاعتماد على الوثائق التاريخية الخطية التي اكتشفت في تدمر وغيرها وفيها أصدق الانباء .

لم نعثر حتى الآن على ما يكشف لنا حقيقة أصل الزباء ومن أي الفروع السامية تنحدر ، والأرجح بان أسرة آل أذينة هي أسرة عربية نزحت اليها من جزيرة العرب ، ولا يبعد أن تكون الزباء عربية الأصل أيضاً حتى اختارها أذينة زوج له . والمعروف عن خاصة العرب بانهم يصطفون زوجاتهم ويفضلون العربيات من عشيرتهم على سواهم من الأجنبيات حرصاً على نجابة النسل ونزعة العرق .

قبضت الزباء على دفة الحكم في تدمر وهي في ريعان الشباب وأقدمت عليه في أحرج الأوقات ، وقد دب الانشقاق في البلاد ، واستهان بها وبولدها الأعداء ، ونازعها الملك قاتل زوجها ، وأنفت الزباء أن تستعين بالرومان وتصانعهم لتفوز بمساعدتهم على توطيد ملك ابنها القاصر لعلمها أن تلك الأيدي قد تلطخت بدم زوجها واعتبرت رومية مسؤولة عن هذه الجريمة وأبت أن تستنجد بالفرس وهم أعداء زوجها بالأمس وكرهت هذه

الحياة حرمة لذكرى زوجها وحفظاً لكرامة نفسها . فأصبحت والحالة هذه وحيدة لامعين لها ولا نصير ، تحيط بها المكائد والدسائس ، ويهدد ملكها منافسوها في الداخل وأعداؤها في الخارج .

وفي هذه الحالة ووسط هذا الجو القلق انقلبت هذه النعجة الوديعة الى لبؤة خطيرة ، فاوجدت الزباء من اليأس أملاً ومن الوهن عزيمة ومن الاستكانة عزة وشهامة ، فشمرت عن ساعد الجد وقبضت على زمام الحكم بيد من حديد فألغت المجالس التمثيلية واستأثرت بجميع السلطات وفازت بحكمتها بتأييد العشائر والقبائل فكونت منهم نواة جيش نازلت به خصومها في الداخل وقضت على جميع مكائد منافسيها ، ولما تم لها ماتريد وصفا لها الجو وأخلص لها الشعب الذي أعجب بها والتف حولها ، وشاع ذكرها في المشرق وتطلعت اليها الأنظار وعقدت عليها الآمال ، وفاخر الجميع بحزمها وتفانوا بفضائلها وشهامتها وأعجبوا لمواقفها المشرفة . عادت تنظيم بلادها وتقوية جيشها إلى أحسن ما كان عليه في عهد زوجها .

ولما تم نجاحها واطمأنت لاخلاص رعيتها جاهرت بحقيقة نيتها نحو رومية وعاملتها معاملة الند للند وقارعتها الحجة بالحجة غير هيابة ولا وجلة ، فشق ذلك على الرومان وتمثلت لهم أشد خطراً من زوجها ، فحملوا القيصر غالينوس على إذلالها وتأديبها وتقويض أركان ملكها ، فسير اليها جيشاً عظيماً ، فصمدت له جيوش الزباء وقاتلته قتالاً شديداً وتغلب جيشها على الرومان وقتل قائدهم هرقليانوس ودحروهم ، ومنذ هذه الهزيمة الشنعاء فقدت رومية نفوذها في الشرق وضعفت هيبتها وانقطعت روابط الود بينها وبين أصدقائها بالأمس . وقد تحملت رومية على مضض وصمة العار الذي لحق جيشها متحينة الفرص لمحوه . ولما قتل القيصر غالينوس في سنة ٢٦٨م وخلفه كلوديوس استغاث به مجلس شيوخ رومية وطلب اليه أن يضع حداً لتصرف الزباء ويحول دون أطماعها ولكنه عجز عن اجابة طلبهم لاشتغاله وقتئذ باخماد الفتن القائمة في ممتلكاته في أوربا وصد هجوم الخوارج في بلاده .

وبينما كانت رومية تعاني هذه الصعوبات في بلادها استأنفت الزباء اصلاح بلادها وتنمية مواردها واغتنمت الفرصة السانحة فجاهرت باستقلال بلادها وضربت السكة باسمها واسم الملك ابنها وهكذا أصبحت السيدة المطلقة في بلادها لا منازع ولا رقيب . وعمدت ارضاء لمختلف العناصر الخاضعة لسلطانها أن أدخلت في بلاطها أشخاصاً من ذوي المكانة منهم ممن عرفوا بآرائهم الصائبة وعلمهم الجم واخلاصهم فاستعانت بهم لتحقيق أغراضها ، ومن أعظمهم الفيلسوف ينجينوس الشهير الذي فادى بحياته في سبيل خدمتها . والعالم القدير بولس بطريرك كرسي أنطاكية . فكانت تزلج لمشورتها وتعمل بنصائحها . وأبدت تسامحاً عظيماً مع جميع المذاهب والاديان ، فكان السلام يرفرف على رعاياها جميعاً لا فرق بين أحد منهم على حين كانت تهرق دماء المسيحيين واليهود في رومية وما جاورها من البلاد وتستحل أموالهم .

أنست الزباء من نفسها القوة الكافية لنزع سيادة رومية من بقية بلاد الشرق فجهزت على مصر حملة بقيادة قائدها زبدا . وكانت الحرب بينها سجالاً فاستولت الجيوش التدمرية على مصر فاتسع بذلك ملك تدمر وفازت بموارد جديدة عظيمة ، وأصبحت بعد استيلائها على وادي النيل مسيطرة على جميع منافذ المواصلات التجارية بين الشرق والغرب ، واحتكرت لنفسها الأسواق مع الهند . وما كادت تنهي الزباء من حملتها على مصر حتى وجهت جيشاً الى آسيا الصغرى لتحريرها من الرومان فاستولت عليها ، وتم لها بذلك ملك مترامي الأطراف يضم الديار الشامية وبعض الجزيرة العربية ومصر وآسيا الصغرى . وأدركت بهذا الفوز رغبتها وشددت بذلك الخناق على رومية وحرمتها أهم موارد ثروتها وسلبتها الاسواق التجارية وكانت هذه المحنة أعظم هزيمة نزلت في تاريخ رومية فاقضت مضجعها وأيقنت بزوال الشرق من يدها ، ولو كان تأخر مجيء القيصر أورليانس الى منصة الحكم ومنازلته الزباء لكان لتدمر غير هذا الشأن ، لحققت أطماعها وبسطت سلطانها على الشرق والغرب وأصبحت الزباء أمنع من أن تصل اليها أيدي أعدائها

ولم يحل ما حل بها على يد هذا القائد العظيم الذي قضى على آمالها وحملها الى رومية أسيرة صاغرة بعد أن كانت تطمح بدخولها فاتحة ظافرة .

مات القيصر كلوديوس عام (٢٧٠) م . وخلفه بالحكم أورليانس ذاك القائد الذي ذاع صيته واشتهر بمحاربته الخارجين والعصاة وعقدت عليه رومية الآمال ليعيد لها هيبتها المفقودة ويدعم ملكها المتصدع .

ورأى أوريليانس من الحكمة أن يصانع الزباء ليوقف زحفها نحو الغرب ريثما يستريح من حروبه ويجمع شمل جيوشه ويجهزها لحرب طويلة الأمد فعرض عليها سنة (٢٧٠) م . صلحاً ضمن لها فيه السيطرة على البلاد التي استولت عليها وأطلق يدها في الشرق واعترف لها بالألقاب التي انتحلتها لنفسها ولابنها وأن تضرب سكة مشتركة ينقش على وجه تمثال قيصر رومية وعلى الآخر تمثال ملك تدمر رمزاً لوحدة الامبراطوريتين الشرقية والغربية وكان هذا الصلح اعترافاً من رومية بتقسيم الامبراطورية الرومانية الى قسمين مستقلين تربطها وحدة شكلية واستقلال اداري .

انخدعت الزباء بصدق نيات القيصر واخلاصه لهذا الاتفاق الذي ضمن لتدمر استقلالها ووحدتها ولذلك لم تتردد في قبول هذا العرض وتوقيعه آملة أن يحل الوئام محل الخصام وتعود الصداقة بينها الى سابق عهدها كما كانت عليه أيام زوجها أذينة فتأمن جانب الرومان وتتحول بقوتها نحو الشرق وتتوسع في بلاد الفرس ويمكنها عندئذ أن تعتمد على مؤازرة رومية التي تضمر للفرس عداوة شديدة .

ولكن سرعان ماخاب أمل الزباء وظهرت لها حقيقة مانطوى عليه هذا الصلح وما كان يخفي وراءه وعرفت بانه خدعة وهدنة تتمكن رومية خلالها من معالجة أمورها وبعدها تتفرغ لمنازلة الزباء ومحاسبتها حساباً عسيراً . ولما شعرت الزباء بهذه الخيانة وتأكدت من الغدر نقضت الصلح في عام (٢٧١) م . ونادت بابنها وهبلات قيصراً ، وأبطلت النقد المشترك وانفردت بنقدها . وهذا كان مذير الحرب بين الفريقين .

وجهز أورليانس جيشين أبحر الأول الى مصر بقيادة القائد فروبوس (Probus) فتصدى له الجيش التدمري بقيادة القائد زبدا وقاتله قتالاً شديداً وكاد يستظهر عليه لو لم ينقلب عليه جماعة من أهل مصر انحازوا الى الرومان فسببوا هزيمة التدمريين وضياع مصر . وتوجه الجيش الثاني بقيادة القيصر نحو آسيا الصغرى فعبر البوسفور ، فتقدمت الزباء على رأس جيشها لمحاربته ولما رأت أنه يتعذر عليها القتال في جبهتين متباعدتين فانتظرت قدوم العدو اليها قرب أنطاكية واكتفت بمناوشات بسيطة تعرقل بها سيره وتستدرجه نحوها منهوك القوى بعيداً عن قواعد امداده ومراكز تموينه ليسهل عليها القضاء عليه . وما كاد العدو يبلغ أنطاكية حتى حملت عليه جيوش تدمر حملة صادقة ودارت بينهم معركة عظيمة استبسلت فيها الزباء وانهزم الرومان ولحق بهم فرسان تدمر يطاردونهم حتى ابتعدوا عن سواد الجيش الذي أصبح منقسماً الى فرقتين ضعيفتين . وعندها جمع العدو جموعه وارتد على خصومه وألقى الذعر بين صفوفهم فانهزموا مولين وجوههم نحو حمص حيث لحقت بهم الزباء ، فجمعت شمل جيشها وأعدت العدة لمنازلة العدو في سهول حمص ولحق بها الرومان فاستقبلتهم الجيوش ودارت رحى معارك دامية كادت أن تدور الدائرة على الرومان ولكن حنكة أورليانوس العسكرية وخبرته الواسعة في الفنون الحربية قد تغلبت على شجاعة الزباء وبسالة جنودها ، فهزمهم الرومان . ولم يبق للزباء أمل الا أن تلتجيء الى حصنها الحصين ومعقلها المنيع قبل أن يحدق بها العدو ويلتحم الجيش الروماني القادم من الجنوب الذي استولى على فلسطين وفينيقية بالجيش المنحدر من الشمال فتؤخذ بين نارين . وهكذا انسحبت الى عاصمتها وهي مؤمنة بانه سيتحطم أمام أسوارها المنيعة قوة كل مهاجم مهما بلغت قوته واستعداده وسيكون لها من بعد المسافة وصعوبة السير في الصحراء ووطئة حرها خير حليف لاذلال خصمها وانهاك قواه ، وهذا مالاقاه القيصر يوم بلغ تدمر فوجدها أمنع من عقاب الجو فاستقبل سكانها جيوشه برمي الصخور

ورشق السهام حتى طال به الحصار وخاف نفاذ المؤن والزاد فعمد الى مسالمة الزباء ودعاها للاستسلام وبعث اليها بهذه الرسالة :

« من القيصر أوريليانس ملك العالم الروماني وسلطان المشرق الى الزباء وأصحابها يحتم عليك الواجب أن تنصاعي الى ما ادعوك اليه بهذه الرسالة وتستسلمي الى الرومان فتضمن سلامتك ويعفى عنك ، ويسمح لك بمجلس الشيوخ الأعلى بالاقامة مع ذويك في مدينة يختارها لكم ، وان تقدمي لخزانة رومية كل مالديك من جواهر وذهب وفضة ومتاع وجياد وابل ، وأنا أتعهد لك بسلامة حقوق رعيتك التدمريين . »

فاجابته على ذلك بهذه الرسالة :

« من الزباء أمبراطورة الشرق الى اورليانس القيصر ، ان ماالتمسته مني بكتابك لم يقدم على مثله أحد قبلك ، وكأنك تجهل أن كليوبترا قد آثرت الموت الشريف على الحياة الذليلة ، واني منتظرة قدوم نجدة الفرس والارمن والعرب لقهر جيوشك والقضاء عليها ، ان كان صعاليك الشام وحدهم قد تغلبوا عليك فما بالك اذا قاتلتك مع حلفائي وعندئذ تندم وتنزل عن غطرستك التي حملتك أن تطلب مني المحال كأنك غالب ومنصور في كل زمان ومكان . » فبهذه الانفة كان جواب الزباء لقيصر رومية وما أبلغه من جواب في روحه ومعناه يصور لنا عزة نفس هذه الامرأة وجبروتها وماصممت عليه من اقتفاء أثر كليوبترا فلا تدع العدو يظفر ، والمنية عندها أهون من الدنية .

ولما وصل جوابها الى الرومان شددوا عليها الحصار بعد أن وصلت اليهم مؤن ونجدات وصار في وسعهم اطالة أمد الحصار . وقد كتب القيصر الى مجلس الشيوخ يبرر فيه موقفه من طول الحرب جاء فيه : « .. يعيب علي البعض محاربتي امرأة ولكن تيقنوا أن الزباء في قتالها أشد بأساً من الرجال ... » . ولما يئست الزباء من وصول النجدات اليها جمعت قوادها وأطلعتهم على عزمها على الخروج من تدمر بنفسها مهما كلفها الأمر لتستفز

القبائل وتجمع الجموع وتأتي بهم لنجدتهم ورفع الحصار عنهم وحضتهم على المقاومة والقتال . واقتحمت ليلاً نطاق الحصار غير مبالية بالأخطار وتوجهت نحو الفرات حيث منازل العرب الاوفياء فشعر بها الرومان فلحق بها فرسانهم وقبضوا عليها وأعادوها الى قيصرهم في تدمر . ولما عاتبها أورليانوس على استخفافها بقوة قيصر رومية . أجابته : « نعم اني أعترف الآن بانك قيصر دون سواك وانك قد تغلبت علي . » وقد اعجب القيصر بعزة نفس الزباء وأجابها الى ماطلبته منه من تأمين أهل تدمر على أرواحهم وأموالهم . فاستسلمت تدمر الى الرومان في عام (٢٧٢) م بعد أيام من أسر الزباء ثم رحل عنها اورليانس بعد أن ترك فيها حامية يبلغ عددها نحواً من (٥٠٠٠٠) جندي مستصحباً معه الزباء وبعض زويها .

وما كادت تبتعد جيوش الرومان عن تدمر حتى ثارت الحمية التي غرستها الزباء في نفوس أهلها وعز عليهم هذا المصير فانقضوا على الحامية الرومانية وأبادوها . ولما بلغ القيصر ذلك سير اليها جيشاً كبيراً ودام تدمر وأعمل بها الجند السلب والنهب والقتل ، ودكوا حصونها وخربوا قصورها وتركوها خراباً يباباً تشكو أطلالها الى الأبد ظلم الانسان وجوره .

استقبلت رومية قيصرها الباسل بحفاوة رائعة وأقامت المهرجانات العظيمة وشاهد أهل رومية استعراض الغنائم وجموع الاسرى وفي مقدمتهم الزباء مطوقة بسلاسل من ذهب مثقلة بالحلي والجواهر . تسير في كبرياء رافعة الرأس . فشخصت اليها الأبصار وتطاولت اليها الاعناق وخشعت لها القلوب لمصيرها ورثاها الجمهور لجمالها وجلال ملامحها وحياها اعترافاً ببطولتها وخصصت لها حكومة رومية قصراً جميلاً على ضفاف نهر التيبر (Tibère) تقضي فيه بقية أيامها بين أهلها وذويها وتبكي حرية بلادها المسلوبة وتندب مصير شعبها البائس . ولم تندم على ملكها الضائع ولا عزها الزائل . فهذا ماركضته لنفسها في سبيل قيامها بالواجب الذي خلده لها التاريخ وخلد معها اسم تدمر الى قيام الساعة .

وهكذا ياسادتي وسيداتي طويت أعظم صفحة من صفحات التاريخ وأصبح ماحل بها حديث الألسن والرواة .

واذا استعرضنا من عرفنا في النساء لم نجد بينهن من عمل عمل الزباء وجاهد جهادها . فقد نبغت في وسط الصحراء ونالت فيها قسطاً وافراً من الثقافة أضافتها الى متانة الاخلاق . وكان قصرها ندوة العلماء وعاصمتها ملجأ المضطهدين . جمعت بين حنان الامومة وحكمة المرشد ، ودهاء الملوك وبأس الجنود ، ولا أدل على ذلك من وصف المؤرخ الروماني زوزيموس لها بقوله : « ان سيرة ملكة تدمر هي سيرة بطل لا سيرة امرأة . »

وقد نقل عن الزباء أنها انتسبت الى سميراميس وكليوبترا من الملكات الشرقيات اللواتي اشتهرن بجمالهن ووقائعهن التاريخية . وعرف عن الزباء بانها اتصفت بأفضل صفات النساء من حصانة وعفاف ، حتى قال عنها المؤرخون من أعدائها بانها بلغت في ذلك مالم تبلغه امرأة قبلها مع ماهي عليه من جمال ولطف وقد وصفها تريبوليوس بقوله . « ان جمال ملكة تدمر يفوق كل وصف ، فترى لون وجهها ضارباً الى السمرة ، وحدقة عينيها سوداء كحدقة النسر ، ويلوح على شخصها سمات القدرة ودلائل الحزم وأمارات الانس واللطف مايدهش العقول ويفتن الابصار . وأما لون أسنانها فأبيض براق كأنها درر جمان . »

وكانت تفاخر بكليوبترا وتعجب بخاتمتها المؤلمة الجريئة ولكن أين بطلتنا من تلك . فادت كليوبترا بملكها وعرشها في سبيل شهواتها وسلمت بلادها الى عدوها لتفوز برضاء عشيقها وجلاد شعبها ، أما الزباء فقد زهدت بسعادتها في سبيل المحافظة على ملكها وسعادة شعبها .

ومع هذا كله فقد مجد الكتاب والشعراء والمؤرخون والشاشة البيضاء ذكر كليوبترا وجعلوها في مصاف الابطال مع ما ارتكبته من المخازي والآثام نحو شخصها وبلادها وأهملت الزباء مع ما تحلت به من الفضائل والمكرمات . وهذا لعمري من الغرائب بمكان .

ويجدر بنا أن نتخذ الزباء وجهادها المثل الاعلى للنساء العربيات ، ومن واجب أدبائنا وشعرائنا أن لايغمطوها حقها وأن يتباروا لاحياء ذكرها والاشادة بمزاياها انتصاراً للمروءة والفضيلة وتقديراً للوطنية الصادقة . وسيرتها برهان محسوس على ماتستطيع المرأة الشرقية بل العربية تحقيقه في الحقل الوطني والمساهمة في اعلاء شأنه اذا عني بثقافتها الصحيحة واحسن توجيه مواهبها النبيلة الى ما فيه خير البلاد وسعادة الوطن .

وكيفما بحثنا في سيرة الزباء لانجد فيه الا عظة وعلماً . وعليها يصدق قول الشاعر :

ولو كان النساء كمن ذكرنا لفضلت النساء على الرجال